

القاهرة ، والعباسيون في بغداد ، وملك دمشق ، يتفرجون . ثم احتل الفرنج وادي عربه والشويك والعقبه ، وزحفوا على سيناء واخترقوها من غزة حتى العريش ثم الفرما في ربيع ١١١٨ م ثم الى جنوبي بحيرة المنزلة . واثناء ذلك شن امير الموصل (٥) حملة كبيبة على الافرنج انتهت بالفشل بسبب رفض ملك حلب وملك دمشق مساعدته ، بل واتصال ملك دمشق بالافرنج سرا !

وتوالى حملات الافرنج على مصر (أ) وتمكن عماد الدين زنكي من قيادة حركة توحيدية عربية تستهدف التحرير ، وتوفي خلفه ابنه نور الدين الذي سار على خط أبيه يعاونه ثم خلفه صلاح الدين الايوبي . . . ويذكر المؤرخون القدامى انه حين اتحدت مصر والشام « ايمن الافرنج الهلاك » . ويتوالى الصراع على مدار عشرات السنين والاجيال ، الى ان قرر صلاح الدين الانتقال من حروب الاستنزاف الى الحرب الفاصلة اذ « العمر قصير والاجل غير مأمون » وهو الراغب بأن يتم تحرير القدس قبل الوفاة . وهكذا بعث صلاح الدين يحث جميع الاتالييم التي كان قد وحدها على الكفاح والنضال ، وعبأ جيشا عظيما ، وقرر ان يلاقي الافرنج على هضاب حطين الجديدة ، بينما كان الافرنج يحسرون في صفورية « حيث الحياة الوفيرة والظلال الوارفة » ، ولهذا عمل صلاح الدين على استدراج الافرنج الى حطين مختارا المكان والزمان المناسبين ليوثمهم في الفخ . ونجح البطل بخطة الاستراتيجية وتلاقى الجمعان عند هضاب حطين عشية ١٣ تهبوز ١١٨٧ ، وانتصر صلاح الدين ، ووصف العماد الاصفهاني نتيجة المعركة قائلا « من شاهد القتلى قال ما هنالك أسير ، ومن شاهد الاسرى قال ما هنالك قتيل » ! ثم حرر صلاح الدين عكا والناصره وصفوريه وقيساريه وحيفا وارسوف ونابلس وسبسطيه الى اخره . . . الى اخره . وفي ٢٠ ايلول ١١٨٧ بلغ القدس وراح يهبىء لاقترحام أسوارها ، ورفض الافرنج التسليم ، وكانت معركة قاسية انتصر فيها جيش صلاح الدين ، ودخل القدس ، وعلى عكس ما فعله الافرنج قبل ٩٠ عاما عند احتلالهم للقدس من مجازر وقتيل رهيب ، انتهج صلاح الدين سياسة الرحمة والعطف والسماحة ، وكفل الامن والسلامة وحرية العبادة للجميع .

سنية في بغداد « وأوصال منككة تسودها الشحاء والبغضاء ، والشعوب هي الضحية ، والوطن هو الثمن » .

ثم توسع الافرنج بسهولة وسرعة وكانهم نسي نزهة ، لكنها نزهة دامية ، اذ تركوا وراءهم في معظم المدن التي دخلوها وعبروها جثث عشرات — بل مئات — الالاف من الضحايا ، وأنهارا من الدماء . وبينما كانوا يتوسعون من انطاكية الى شيزر ومصرين وحارم والباره ومرة النعمان ، كان الفاطميون في القاهرة يتصلون بالافرنج يحرضونهم على احتلال بلاد الشام على امل اقتسام المنطقة معهم ! ثم وخلال خمسة أشهر احتل الافرنج المنطقة من نهر العاصي ومصياف وبعرين وسهل البقاع الى حصن الكراد ، ثم طرابلس واللاذقية وطرطوس وجبله ، ثم بيروت وصرفند وصور وعكا وحيفا وارسوف وقيسارية ، ثم اللد والرملة . واثناء ذلك كان امراء شيزر ومصياف وحبص وطرابلس وبيروت وصور وعكا يتعاونون مع الافرنج ويمدونهم بالاغذية والاموال والادلاء ! ومع ذلك فان الشعب قاوم ببسالة في حلب وصيدا ومرة النعمان وعرة . وفي ٧ حزيران ١٠٩٩ وصل الافرنج الى بيت المقدس ( وهو اليوم نفسه الذي سقطت فيه القدس في أيدي الاسرائيليين عام ١٩٦٧ ) وحاصروها الى ان سقطت في ١٤ تهبوز ، فاقاموا فيها مجزة بشعة استمرت اسبوعا من التقتيل الجماعي . ويقول المؤرخ ابو المحاسن : « هذا كله وعسكر مصر لم يحضر » . . . ولا تحرك الخليفة في بغداد !

ثم استولى الافرنج على يافا ونابلس وبيسان وطبريا والناصره ، ثم شرعوا بتحقيق هدفين استراتيجيين : تمكين اتصالهم البحري باوروبا ، وقطع صلة فلسطين ببقية الوطن العربي . ثم استولوا على بقية الجليل وتوغلوا في الجولان واقتربوا من دمشق ، ثم فتحو قيسارية وارسوف وتابعوا مذابحهم الرهيبة . . . ثم احتلوا طرابلس احتلالا فعليا بعد حصار طويل ومذبحة اخرى واحرقوا فيها مكتبة بني هزاز التي كانت من اعظم مكتبات العالم . وبعد ربع قرن من النضال استسلمت صور ، وبعد سلسلة محاولات استولوا عليها على صيدا . . . وايضا وايضا والفاطميون في